الوجدان الجماعي
في الشعر الجاهلي

للدكتور عبد الغني زيتوني
مدرس الأدب القديم بجامعة حلب

إنّ مجتمع القبيلة في العصر الجاهلي، بعلاقاته ونظمه وعاداته وأعرافه، هو المجتمع الذي يولد فيه العربي، ثم ينشأ متشرِّبا نظمه وعاداته وأعرافه التي تبنى على دعامة أساسية هي النسب. وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أنّ كل امرىء في قبيلته يتغنّى بانتمائه، ويعتدّ بأرومته، بدءاً من والده وإخوته، وانتهاءً إلى رهطه وعشيرته، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، و«هويته» التي يحملها دائما، في حله وترحاله، اسم قبيلته، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم.

فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الشعر الجاهلي يبرز الإنسان العربي متعصبا لقبيلته أشد التعصب، ملتحما بها ألصق الالتحام، لأنه يعي ويدرك أن وجوده، مرتبط بوجودها، وفناءه مقرون بفنائها. ولا أدعى لهذه العصبية، وهذا الالتحام من شعوره بوحدة النسب، أي وحدة الدم التي تربطه بأفراد

القبيلة جميعا، والتي تجعله يحس أنه عضو في جسم القبيلة، يصيبه ما يصيب القبيلة، فيفرح لفرحها، ويحزن لحزنها، ويظعن لظعنها، وينزل لنزولها، وإذا أُغير عليها هبّ لنجدتها، ذائداً عن حياضها، وشعاره صيحات قوية تعلن انتسابه إليها، وإذا اعتدي على فرد منها انطلق إلى الثأر من القبيلة المعتدية. وفضلاً عن ذلك كله فإنه ينقاد لسيدها، ويخضع لما تمليه عليه نظمها وأعرافها.

فالنزعة العصبية تعني تمسك العربي بنسب قبيلته تمسكا شديدا، وخضوعه التام لشريعة القبيلة. وهذه العصبية هي التي تهب الأفراد القوة والتآزر في مواجهة الأعداء. وقد ألمح ابن خلدون إلى هذا الأمر في قوله: «ولا يصدقُ دفاعُهم وذِيادُهم إلاّ إذا كانوا عصبيةً وأهل نسبٍ واحدٍ، لأنهم بذلك تشتدّ شوكتهم، ويُخشى جانبهم، إذْ نُعْرَةُ كلٍّ أحد على نسبه وعصبيته أهمّ، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنُّعْرَة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبةُ العدوِّ لهم»(١).

١ - الالتزام القبلي:

لا غرو، بعد أن عرفنا مدى عصبية الفرد، أن يقف الإنسان العربي موقف الملتزم بقضايا القبيلة وحقوقها وواجباتها، لا يكاد يخرج عن هذا الالتزام. ولمّا كان الشاعر فردا من أفراد القبيلة فقد اتخذ الموقف نفسه، بل إنه تحمل أعباء أكثر، لما له من أهمية في الحياة الجاهلية، لذلك حمل لواء الشعر مدافعا عن قبيلته أشد الدفاع، ومفتخرا بمآثرها وأمجادها أعظم الافتخار. وإذا كانت المهمة التي يقوم بها الشاعر، في أي مجتمع كان، هي الكشف عن العقلية المنتشرة في ذلك المجتمع، إذ يشعر بها ويعبر عنها(٢)، فإن هذه المهمة تنطبق تماما على ما قام به الشاعر الجاهلي، فقد جعل من شعره مرآة صادقة تعكس قضايا القبيلة في حالتَي الحرب والسلم، فضلا عن وقوفه مع قبيلته، مدفوعاً بنزعته العصبية تجاهها، فإذا هو يرى أنّ نسبها أشرف

الأنساب، وأنّ شجاعتها ما بعدها شجاعة، وأنّ فضائلها وخلالها الحميدة تربو على ما عداها من فضائل القبائل الأخرى وخلالها.

وتلك الرؤية ليست قصراً على الشاعر وإنما يشترك فيها معظم أفراد القبيلة، وما الشاعر إلاّ لسان حال القبيلة، يعبر في شعره عن انفعالات أفرادها وأحاسيسهم وطموحاتهم، فينقلها إلى الآخرين، فشعره لا يعكس شعورا ذاتيا فقط، وإنما يعكس شعور جماعته أيضا.

وهكذا نجد في كثير من الشعر الجاهلي ذلك التعبير عن طغيان الروح الجماعية على الإنسان العربي، وقد جُلّيت هذه الروح في نزعته العصبية التي جعلته لا يكاد يخرج عن مجتمع القبيلة والالتزام به؛ ذلك أن الفرد في القبيلة عليه أن يتبعها في أمورها كلها سواء أكانت مصيبة أم مخطئة، فما تقرره هو القرار النافذ الذي لا ينبغي لأحد أن يخرج عليه، على الرغم من ظهور فساده أحيانا. وقد عبّر عن مثل ذلك الموقف دُرَيد بن الصِّمَّة حين قال(٣):

أمرتُهمُ أمري بمُنْعَرَجِ اللِّوى ... فلم يستبينوا الرُّشدُ إلاَّ ضحى الغدِ
فلما عَصَوني كنتُ منهمُ، وقد أرى ... غَوَايتَهمْ وأنَّني غيرُ مُهْتَدي
وما أنا إلاَّ من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

إذنْ فثمة مصير واحد لجميع أفراد القبيلة، والالتزام بها يحتّم على العربي أن يكون مع قومه في السراء والضراء. وقد تحول تمسك الفرد بمصير القبيلة إلى أسطورة يتناقلها العرب جيلا بعد جيل عن وفد عاد، حين خُيِّروا من السماء، وكانوا ثلاثة، فاختار اثنان منهم ما يحقق آمالهما، أما الثالث، وهو قَيْل بن عَتْر، فقال: «أختار أن يُصيبني ما أصاب قومي، فقيل: إنه الهلاك. قال: لا أُبالي؛ لا حاجة لي في البقاء بعدهم»، فأصابه ما أصاب عاداً من العذاب فهلك»(٤).

إنّ من أهم مظاهر نزوع الفرد نحو قبيلته، كما يبدو من الشعر، حرصَه الشديد على النسب والاعتزاز به، ولم لا؟ وهو أقوى صلة تربطه بقومه،

وتشد أواصر العصبية معهم. فلا غرابة بعد ذلك أن يطمح إلى أن يجعل نسبه في الذروة من الشرف والرفعة، وأن يجعل الأجداد والآباء الذين ينتمون إليه في مقام السادة العظماء. ونجد صدى ذلك في قول معاوية بن مالك(٥):

إنّي امـرؤٌ من عُصْبَـةٍ مشهـورةٍ ... حُشُـدٍ لهم مَجْـدٌ أشَمُّ تَليـدُ
ألفَـوا أبـاهم سيـداً وأعـانهـم ... كـرمٌ وأعـمـامٌ لـهـم وجُـدودُ
إذْ كـلُّ حـيٍّ نـابِتٌ بـأُرُومَةٍ ... نَبْتَ العَضَـاهِ فَمَاجِـدٌ وكَسِيـدُ
وإذا نـوافـق جُـرأةً أو نـجـدةً ... كنـا، سُمَيَّ، بهـا العـدوَّ نَكِيدُ

فالشاعر يؤكد انتماءه إلى قومه الذين يشكلون عصبة قوية ملتحمة الأطراف، تشمخ متطاولة بأمجادها نحو السماء، قد رعاها الآباء والأعمام والأجداد حتى جعلوها كشجرة وارفة الظلال تنضح عبيرا فواحا من المجد والسيادة، وتقف صامدة راسخة أمام زعزعة الرياح، لِما لها من قوة الأغصان وصلابة الفروع.

وعلى هذه الشاكلة ينزع سلامة بن جَنْدل السَّعْديُّ إلى الفخر بانتسابه إلى قومه الذين يجمعون إلى شرف المحتد شجاعة في القتال، ورأيا صائبا في حل قضايا القبيلة، وإحلال الوفاق والوئام بين أفرادها(٦):

إنّي امـرؤٌ من عُصْبَـةٍ سَعْـديَّـةٍ ... ذَرْبَى الأَسِنَّةِ كـلَّ يـوم تـلاقي
لا ينـظرون إذا الكتيبـةُ أحْجَمَتْ ... نَـظَرَ الجمـالِ كُـرِبْنَ بـالأوسـاقِ
يَكْفُـونَ غـائِبهم ويُقضَى أَمْـرُهَم ... في غيـر نَقْضٍ منهمُ وشِـقَـاقِ
والخيـلُ تعلم من يَبُـلُّ نحورَهـا ... بـدمٍ كماءِ العَنْـدَمِ المُهَـراقِ

وشبيه بذلك أيضا فخر الأعشى بعصبيته القَيْسيَّـة، وبشبابهـا الذين يفـوقون الآخـرين شجاعـة وجمالاً، فضـلا عن اتصافهم بـالأنفـة والعـزة والكرم(٧).

إن اعتزاز الإنسان العربي بنسبه جعله يغلـو في بعض الأحيان، فلا يرى نسبا يضاهي نسب قبيلته نبلا وشرفا، ولا يرضى أن يتطاول أحد من

القبائل الأخرى، فيظن نفسه أعلى نسبا وأشرف أرومة، وما الرواية الآتية إلا صورة واضحة لذلك الغلوّ.

فقد ورد أن بدر بن مَعْشَر من بني مُدرِكَة وقف في الجاهلية، بسوق عُكاظ، يفخر بنسبه، ويقول:

نحن بنو مُدْرِكَةِ بنِ خِنْدِفْ	من يَطْعُنوا في عينه لم يَطْرِفْ
ومَنْ يكونوا قَوْمَهُ يُغَطْرِفْ	كأنه لُجَّةُ بَحْرٍ مُسْدِفْ

ثم مدَّ رِجله، وقال: «أنا أعزُّ العرب، فمَنْ زعم أنه أعزُّ مني فليضربها». فلم يطق الأحمرُ بن مازن الهَوازِنيّ عنجهيتَه ورفعَ نسب قبيلته فوق أنساب القبائل الأخرى، فاستل سيف، وضرب رجله، فأندرها من الركبة، غير مبالٍ بحرمة الشهر الحرام وقد كاد الشر يستفحل بين قبيلتي الرجلين، لولا أنهم جنحوا إلى الصلح فيما بينهم.

وقد سجل الأحمر تلك الحادثة في شعره، فقال(٨):

إنّي وسيفي حليفا كلِّ داهيةٍ	من الدَّواهي التي بالعَمْد أجْنيها
إنّي نَقمْتُ عليه الفخرَ حين دعا	جَهْراً وأبرز عن رِجْلٍ يُعَرِّيها
ضربتُها آنفا إذْ مدَّها بَطِراً	وقلتُ دونَكَها، خُذْها بما فيها
لمَّا رأى رِجله بانتْ بركبتها	أوْمَى إلى رِجْلِه الأخرى يُفَدِّيها

وتلك، لا شك، صورة للغلوّ الشديد في التعصب القبلي، ولم تكن هي الصورة السائدة في العصر الجاهلي؛ إذ لكل قبيلة مكانتها في مدارج النسب والشرف، تعرفها لها القبائل الأخرى وتضعها موضعها فيها. أمّا إذا حدث، أحيانا، إفراط من فرد ينتمي إلى قبيلة ما، فإن إفراطاً آخر يقابله من الطرف الآخر على الأغلب، وتكون عاقبته شبيهة بما حدث لساق بدر بن معشر بسوق عُكاظ.

لقد نهل الإنسان العربي من حب قبيلته حتى غدا لا يلهج إلاّ بذكرها، وفي كثير من الأحيان لم يكن يرى في قبيلته إلاّ نموذجا مثاليا للكمال والرفعة

والسؤدد؛ فإذا هو ينحت لها تمثالا بديعا يجمع فيه أفضل الصفات الخَلْقية والخُلُقية.

وليس أدل على ذلك الحب من معلقة عمرو بن كلثوم التي لم يدع فيها فضيلة من الفضائل إلاّ جعلها لصيقة بقومه بني تغلب، ولا صفة من صفات البطولة إلاّ أسبغها عليهم. ولم يكتف بذلك فقد تضخمت في نفسه تلك الفضائل والصفات حتى فاضت في قوله(٩):

لنا الدنيا ومَنْ أضحى عليها ... ونبطِشُ حين نبطِشُ قادرينا
إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ ... تَخِرُّ له الجبابِرُ ساجدينا
ملأنا البَرَّ حتَّى ضاق عنَّا ... وظهرَ البحرِ نملؤه سفينا

إنَّ نفس الشاعر قد امتلأت بعظمة القبيلة حتى ذابت فيها ذوبانا تاما، فلم تعد تعبّر إلاّ بلسانها، وغابت «أنا» الشاعر لتحلّ محلها «نحن» القبيلة، وظهر ذلك واضحا في استخدام ضمائر الجمع في الأفعال والأسماء، ولم يقتصر استخدامها على الأبيات السابقة، وإنما شمل أكثر أبيات المعلقة. فلم يعد مستغربا، بعد أن استحوذت القبيلة على كيان الشاعر، أن نراه يجعلها مالكة الدنيا، ومسيطِرة على مَنْ فيها من القبائل.

وقد نهج الشاعر عامر المُحَاربيّ نهجا مماثلا تجاه قبيلته؛ إذ جعله التزامه نحوها ينطلق إلى رفعها إلى مكانة عالية من الشجاعة في القتال، وإلى الذّروة الشامخة من السيادة والمهابة(١٠):

أولئك قومي إنْ يَلُذْ ببيوتهم ... أخو حَدَث يوماً فلن يَتَهَضَّمَا
وكمْ فيهمُ من سيّدٍ ذي مَهابَةٍ ... يُهاب إذا ما رائدُ الحرب أضْرَمَا
لنا العِزَّةُ القَعْساءُ نَخْتَطِم العِدَى ... بها ثم نَسْتَعْصِي بها أنْ نُخَطَّمَا
هُمُ يَطِدُون الأرضَ لولاهمُ ارتمتْ ... بِمَنْ فوقَها من ذي بَيَانٍ وأعجما

إن طغيان الروح الجماعية على الشاعر والتزامه القبلي جعلاه لا يرى في الوجود غير قبيلته، فهي المحور الذي تدور عليه حياة الآخرين، فإذا ما

زالت انتهت الحياة بمن فيها، ومن هنا نجد أن حياة الشاعر قد اندمجت في حياة القبيلة وغدت حياة واحدة، لأنه ربط ربطا سببيا بين وجوده ووجودها، فأيّ وجود ينتهي فإن الوجود الآخر ينتهي أيضا، فهي عِلّة الحياة وعِلّة الوجود ولولاها لما كانت حياة ولما كان وجود.

وهكذا أوضح لنا الشعر جلياً التزام الإنسان العربي بقبيلته؛ فقد ظهر ذلك الالتزام في خضوعه التام لها، وفي فخره بالانتماء إلى نسبها، وفي رؤيته المثالية لمآثرها وأمجادها. وسنجد أن نزعته العصبية جعلته أيضاً ينقاد لسيدها انقيادا تاما، ويرفع من مكانته إلى أعلى المراتب.

٢ ـ سيد القبيلة:

إن نزوع الفرد نحو قبيلته وميله المفرط تجاهها دفعاه إلى أن يرى في سيدها المثل الأعلى، وأن يرى في صفاته صفات فريدة تميّزه من سائر الأفراد الآخرين؛ إذ إن قضايا القبيلة وواجباتها نحو أفرادها، ونحو القبائل الأخرى كثيرة ومختلفة، فكان لا بد لرئيسها أن يتحمل عبء القيام بالتوجيه والإرشاد وحمل المسؤولية أمام مجتمع القبيلة، الذي يعيش، غالبا، حياة غير مستقرة في مواجهة طبيعة قاسية، تجبره على التنقل والارتحال، وفي مواجهة أعداء أولي بأس وقوة يجبرونه على التيقظ والحذر.

وذلك كله جعل الإنسانَ العربي يطلب في سيده خلالا وشمائل كثيرة، تخوّله قيادة القبيلة في تلك الحياة الشاقة. وقد أمدتنا الروايات والنصوص الشعرية بمعظم صفات الرئاسة، مما يجعلنا نكوّن رؤية واضحة لسيد القبيلة. فقد ورد أن أهل الجاهلية كانوا: «لا يُسوِّدون إلاّ من تكاملت فيه ستّ خصال، السخاء، والنجدة، والصبر، والحِلم، والتواضع، والبيان»(١١). كما ورد: «أنه قيل لقيس بن عاصم: بِمَ سُدْتَ قومك؟ قال: ببذل الندى، وكفِّ الأذى، ونُصْرة المولى، وتعجيل القِرى»(١٢).

وفضلا عن تلك الصفات لا بد لسيد القبيلة من أن يتحلّى بالعقل والرأي الصائب، وأن يكون ذا حيلة وفطنة للتخلص من المعضلات في

الحرب والسلم. كما لا بد له من أن يكون شجاعا مقداما مُلِمّاً بفنون القتال وقيادة المعارك، يمتلك جسما قويا قادرا على الصبر والتحمل في الشدائد، وهذا ما وُصِفَ به عامر بن الطفيل، سيد قبيلة جعفر بن كِلاب، إذ قيل عنه: «كان لا يَضَلُّ حتى يَضَلَّ النَّجمُ، ولا يعطش حتى يعطشَ البعيرُ، ولا يهابُ حتى يَهابَ السَّيلُ، كان، والله، خيرَ ما يكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً»(١٣).

وذهب قسم من الشعراء إلى أن الرأي الحكيم والشجاعة الفائقة هما أهم ما يتطلبه الفرد في قائد قبيلته ورئيسها، وآية ذلك أنه حينما علم لَقِيط بن يَعْمُر الإيادي بحشد كسرى جيوشه للإغارة على قومه بعث إليهم شعرا يحذِّرهم فيه، ويطلب منهم أن يتخيّروا قائدا يتصف بصفات السيادة، وفي مقدمتها شجاعة القتال وحنكة التفكير(١٤):

فقلِّدوا أمركم، لله دَرُّكُمْ ... رَحْبَ الذِّراعِ بأمر الحرب مُضْطَلِعا
لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيشِ ساعدَهُ ... ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعا
مُسَهَّدَ النوم تَعْنيه ثُغُورُكُمُ ... يَرومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلَعا
ما انفكَّ يحلب دَرَّ الدَّهرِ أشْطُرَهُ ... يكون مُتَّبَعاً طَورا ومُتَّبِعَا
وليس يشغُلُه مالٌ يُثَمِّرُهُ ... عنكم ولا ولدٌ يَبْغي له الرِّفَعَا
حتّى استمرَّتْ على شَزْرٍ مَريرتُهُ ... مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لا قَحْما ولا ضَرَعَا

فالقائد الذي يطلبه لقيط يتصف بالشجاعة ومعرفة فنون الحرب، والرأي الحكيم، والخبرة التامة بحلو الحياة ومرها، همه أمن القبيلة والمحافظة عليها، كما يفضل أن يكون قوي الجسد متين البنية، تام الرجولة، فلا هو شيخ كبير ولا هو حدث صغير.

ويبيّنُ لنا الشعر أن مهام سيد القبيلة تتعدى القيادة والتوجيه إلى تكفّله، في أكثر الأحيان، بسد عوز الفقراء من أفراد قومه، وغالبا ما يكون له بيت خاص يأتون إليه فيجدون فيه ما يقضي حوائجهم، ويشبع بطونهم كما يرتاده

أيضا الأضياف وعابرو السبيل، فيلقون فيه الطعام والمأوى. ذلك أن سجية الكرم والجود والعطاء من أبرز الصفات التي ينبغي أن تكون في سيد القبيلة، وقد رأينا أن قيس بن عاصم افتخر بأنها هي التي جعلته سيد قومه. كما وجدها الأعشى أظهر خصال قيس بن معد يكرب سيد كِنْدة حين مدحه، فقال(١٥):

وسعى لِكِنْدَةَ، غيرَ سَعْيِ مُوَاكِلٍ، قَيسٌ، فَضَرَّ عدوَّها وبَنَى لها
وأهانَ صالحَ مالـه لفَقيرها وأسَى، وأصلحَ بينها، وسعى لها
وتَرى لـه ضُـرّاً على أعدائِه وتَرى لنعمتِه على مَنْ نالَها
أثـراً مـن الخيرِ المُـزَيِّنِ أهلَه كالغيثِ صابَ ببلدةٍ فأسالَها

وفضلا عن ذلك فإن سيد القبيلة كان يقوم، غالبا، باحتمال الديات عن أفراد قومه، إذا لم يقدروا على دفعها، وقد ورد أن رئيس القبيلة إنما قيل له: «السيد المُعَمَّم» لأن كل جناية يرتكبها رجل من عشيرته تكون معصوبة برأسه، كما تعصب به العِمامة(١٦). ومعروف أن هَرِم بن سنان والحارث بن عَوف سيدَيْ بني مُرَّة قد حملا الديات بغية إنهاء الحرب بين عبس وذبيان، مما جعل زهير بن أبي سلمى يمدح صنيعهما في معلقته، وذلك في قولِه(١٧):

يميناً لنعم السيدانِ وُجِدتُما على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ
تداركتما عبساً وذبيانَ بعدما تَفانَوا ودَقُّوا بينهم عِطرَ مَنْشَمِ
وقد قلتما: إنْ نُدرِكِ السِّلمَ واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلَمِ
وأصبح يُحدَى فيهمُ من تِلادِكم مغانِمُ شَتَّى من إفالٍ مُزَنَّمِ
تعفَّى الكلومُ بالمِئينَ فأصبحتْ يُنَجِّمُها من ليس فيها بمُجْرِمِ
يُنَجِّمُها قومٌ لقومٍ غرامةً ولم يُهَريقوا بينهم مِلءَ مِحْجَمِ

ويبدو أن كثرة تلك الأعباء المالية التي يتحملها سيد القوم كانت دافعا كبيرا حدا بالعربي أن يخصه بامتيازات وحقوق تفوق امتيازاته وحقوقه هو، ومن ذلك ما يفرد له من الغنائم، كالمِرباع والنَّشيطة والصَّفايا والفُضُول.

فأما المِرباع فهو ربع الغنيمة، وأما النشيطة فإنه كان للرئيس أن يَنْشِطَ،

عند قسمة المتاع، العِلْقَ النفيس فيأخذه، وأما الصفايا فهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، وأما الفُضُول فهو ما فَضَل عن القسمة بعد توزيع الغنائم. وقد ذكر تلك الحقوق جميعها عبد الله بن عَنَمَـة في رثائه لِبسطام بن قيس، سيد بني شيبان(١٨):

لـك المِرباعُ منها والصَّفايا وحُكْمُـكَ والنَّشيطةُ والفُضُولُ

هذا عدا عن التقدير والتجلّة والاحترام التي يبديها الإنسان العربي لسيد القبيلة، فضلا عن الطاعة والخضوع لتوجيهه وإرشاده، فقوله القول الفصل في حل النزاعات والخلافات بين أفراد القبيلة وفروعها. ولعل في قول ابن خلدون الآتي في مشايخ البدو ما يصدق كثيرا على سادة القبائل في العصر الجاهلي: «وأمّا أحياء البدو فيزعُ بعضَهم عن بعض مشايخُهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتَّجلَّة»(١٩).

ويبدو من الشعر أن سعي سيد القوم في حلّ الخلافات لا يقتصر على قبيلته نفسها، وإنما قد تأتي إليه قبائل أخرى تحكّمه في خصوماتها، كما جرى لقبيلتي عبس وذبيان، حين وقع الشر بينهما وأرادتا الصلح، فطلبتا من سُبَيْع التغلبيّ، وهو سيد تغلب، أن يحكم بينهما. وقد أرسل إليه سَلَمة بن الخُرْشُب الأنْماريّ شعرا، يسأله فيه أن يعدل في الحكم، فلا ينحاز إلى أحد الطرفين، شأن سيد القبيلة المنصف(٢٠):

أبلغْ سُبَيْعاً، وأنت سيدُنا قِدْماً، وأوفى رجالِنا ذِمَمَا
أنَّ بغيضاً وأنَّ إخوتَها ذُبيانَ قد ضَرَّموا الذي اضْطَرَمَا
نُبِّئْتُ أنْ حكَّموك بينهمُ فلا يقولُنَّ بئسَ ما حَكَمَا
إنْ كنتَ ذا خِبرةٍ بشأنهمُ تعرفُ ذا حقِّهم ومَنْ ظَلَمَا
وتُنزِلُ الأمرَ في منازله حُكْماً وعلما وتُحْضِرُ الفَهَمَا
فاحكُمْ، وأنت الحكيمُ، بينهمُ لن يَعْدَمُوا الحُكمَ ثابتا صَتَمَا
حتى تُرى ظاهرَ الحُكومةِ مثـ ـلَ الصُّبح جَلَّى نهارُهُ الظُّلَمَا

هــذا وإن لم تُــطِقْ حـكــومتَـهم فــانْبِــذْ إليـهم أمــورَهـم سَلَمَا

ولكن لا ينبغي أن يذهب بنا الظن إلى أن الإنسان العربي كان يسلّم أموره كلها لسيد القبيلة، من دون قناعة أو فهم أو محاسبة له، وإنما كان، في بعض الحالات كما يبين لنا الشعر، إذا شعر بأنه لا يحقق مصالح القبيلة تماماً، أو أنه غير كفء لقيادتها وتوجيهها، خلع عنه السيادة وجرَّده من حقوقها. وهذا ما جرى لسيد بني سليم بن قيس، فإنهم كانوا قد نَصَّبوا عليهم سيدا، فلما خالفهم في بعض الأمور وثبوا عليه، وأخرجوه من ديارهم، فقال يزيد بن الصَّعِق يهجوهم بفعلتهم(٢١):

وإنَّ اللـهَ ذاقَ حـلومَ قـيس فـلمّا ذاقَ خِـفَّـتَـهـا قَـلاهــا
رآهــا لا تــطيــعُ لهــا أمـيــراً فَـخَـلاَّهـا تَـرَدَّدُ في خَـلاَهـا

ولهذا كان حرص سادة القبائل ورؤسائها على مشورة ذوي الرأي في معظم الأمور، ولا يكاد ينفرد سيد القبيلة بآرائه، وإنما كان يشاور مجلسا يضم أشراف قبيلته، وقد يُعَبَّر عنه أحيانا بالملأ(٢٢). وهذا المجلس شهد لدى قريش تطوراً بارزاً حين أضحى له دار خاصة بمكة تعرف بدار الندوة، حيث كان يجتمع فيها سادتهم وكبراؤهم للتشاور في أمور السلم والحرب(٢٣).

ويشير الشعر في بعض المواضع إلى أن عدم التشبث بالرأي، وجعل الأمر شورى في القبيلة، صفتان هامتان في سيد القبيلة، لأن أيّ خطأ يرتكبه قد يعرض القبيلة كلها للخطر أو الهلاك. وهذا ما جعل لقِيط بن يَعْمُر، في وصيته لقومه، ينبههم على اختيار رئيس يتصف بهاتين الصفتين(٢٤):

ما انفكّ يحلب دَرَّ الدهرِ أشْطرَهُ يكــون مُتَّبَعــاً طــوراً ومُــتَّبِـعَــا

كما وجد الأعشى أن من كمال سيادة قيس بن معدِ يكَرِب الكِنْدي أنه لا يعتدّ برأيه، وإنما يشاور أفراد قبيلته، ويجعلهم، دائما، قريبين منه لهذا الأمر(٢٥):

فــإنَّ الإلــه حــبــاكُــمْ بــه | إذا اقتســمَ القــومُ أمــراً كُــبــارا
فــإنَّ لــكــم قــربَــهُ عِـزَّةً | ووسَّــطَكُـم ملكَــهُ واستـشـارا

لقد حرص الجاهليون على السيد حرصا جعلهم يهتمون بتنصيب أبنائه سادةً بعده؛ فكان إذا نَبه ابن سيد القبيلة وعلا شأنه ورث رئاسة القبيلة بعد أبيه، وكانت هذه الوراثة شائعة في العصر الجاهلي، فمن ذلك أن حِصْن بن حُذَيْفَة أوصى ابنه كي يكون رئيسا لقومه بني فَزَارة، من بعده(٢٦).

وقد سجل لنا ذلك الشعر، فحينما ورث بَشَامة بن الغَدير السيادة عن أبيه وجده افتخر بتقلده إياها وراثة، فقال(٢٧):

وجـدتُ أبي فيهم وجـدِّي كليهـما | يُــطاع ويُؤتَى أمْــرُهُ وَهْــوَ مُحْتَبي
فـلم أتعـمَّــل للسـيــادة فـيـهـمُ | ولكن أتتني طــائعــا غــيرَ مُتْعَبِ

ويبدو أن سيد القبيلة كان إذا حضره الموت، ورأى ابنه جديرا بالسيادة، أوصاه بوصايا ترشده في رئاسته القادمة، وقد زُعم أن الحارث بن كعب، سيد القبيلة التي تُسمّى باسمه، أوصى ابنه، فقال(٢٨):

أبُـنَيَّ إنَّ أبــاك يــومــاً هــالــكُ | فــاحفَظْ أبــاك رئــاســةً وَتَقَلُّبــا
وإذا لـقيتَ كتيبــةً فَـتَـقَــدَّمَـنْ | إن المُقَــدَّمَ لا يكــون الأَخْيبــا
تلقى الـرئـاسـة أو تمـوتُ بـطعنـةٍ | والمــوتُ يــأتي من نــأى وتجنَّبــا

لكن لا يعني ما تقدم أن سيد القبيلة كان يتلقى الرئاسة وراثة دائما، وإنما كان يُنصَّب فيها من هو كُفُؤٌ لها، ومُتَّصِفٌ بصفاتها؛ سواء أكان من بيت سيادة أم لم يكن.

وبذلك بيَّن لنا الشعر أن الإنسان العربي كان يهمه، قبل كل شيء، أن يكون سيد القبيلة جديراً بحمل أعباء السيادة، موضحا أنه إذا تحقق له ذلك رفعه إلى المكانة العليا في نفسه، فدافع عنه، وخضع له، ووهبه أفضل ما فاز به من الغنائم، وجعله المثال الأعلى الذي يحتذى في الحياة.

٣ ـ الدفاع عن القبيلة:

إنّ من أهم مظاهر النزعة العصبية، كما صورها لنا الشعر، أن يقف الفردُ نفسه مدافعا عن القبيلة، ولا ريب أن ظروف العيش قد هيأته لذلك، إذ جعلته حياة الصحراء فارسا يُلمّ بفنون الإغارة والقتال، فهو غالبا ما يتوقع غزواً من عدو، أو إغارة خاطفة من موتور، أو صيحة حرب في القبيلة استعدادا لهجوم على حيّ من أحياء القبائل الأخرى.

بَيدَ أن بعض الشعراء ألمح إلى احتمال تخاذل أفراد من القبيلة في الدفاع عنها، وتثاقلهم عن نصرتها، مما يدعو إلى غضبها عليهم وسخطها منهم. ولا شك لدينا في أن حدوث ذلك قليل، وفي حالات تكاد تكون نادرة، كمثل الذي جرى في حرب «البسوس» بين بكر وتغلب، فإنَّ بعض أشراف بكر لم يشتركوا في المعارك الأولى، ولعلهم رجوا أن تتصالح القبيلتان، وتعودا عن القتال إلى ما كان بينهما من ودٍّ ووئام. ومن هؤلاء الحارث بن عُباد الذي اعتزل الحرب مع أرهاط بني جُحَيْم، فانبرى سعد بن مالك، جد طرفة الشاعر، يحضه، ويغمز من جانبه، لوقوفه موقف الخذلان لقومه(٢٩):

يا بُؤْسَ للحربِ التي وَضَعَتْ أراهطَ فاستراحوا
والحربُ لا يبقى لجا حمها التَّخَيُّلُ والمِراحُ
إلا الفتى الصَّبَّارُ في النَّـ جَداتِ والفرسُ الوَقَاحُ

فالجبان الرعديد هو الذي يتخلى عن قبيلته في حربها، أما الفارس الشجاع فيهرع لنجدتها مخلفا وراءه حياة الراحة واللهو.

ولكن حتى في حالة الحارث بن عُبَاد فإنّ النزعة العصبية عادت تدفعه إلى مشاركة القبيلة في القتال والدفاع عنها كبقية الأفراد الآخرين، وخاصة أن ابنه بُجَيْرا كان قد قتل، وهو يسعى في الصلح لدى بني تغلب، وقد سجل موقفه الجديد في شعره حين قال(٣٠).

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ مني لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حِيالِ

لم أكن من جُناتِها علم الله ـ م ـ وإنّي بحرِّها اليومَ صَالِ
لا بُجيرٌ أغنى فتيلاً ولا رَهْطُ ـ م ـ كُلَيْبٍ تَزاجَروا عن ضَلالِ

فالدفاع عن القبيلة وحماها من واجبات الفرد الأولى، بل هو مفخرته الكبرى التي يعتدّ بها، وما الدفاع عن القبيلة إلّا دفاع عن شخصه وشرفه وعرضه. وقد صوّر المُتَلَمِّسُ الضُبَعِي ذلك أبرع تصوير، في رده على شخص زعم أن الشاعر سيتخلّى عن قبيلته ويفارقها لخلاف شجر بينه وبينها(٣١):

أمُنْتَقِلاً من آل بُهْثَةَ خِلْتَني ... ألا إنَّني منهم وإنْ كنتُ أيْنَما
ألا إنَّني منهم وعِرضي عِرضُهم ... كذي الأَنْفِ يحمي أنْفَهُ أنْ يُكَشَّمَا

لقد بلغ الشاعر ذروة التعبير عن محاماته عن القبيلة، حين جعلها في منزلة الأنف، وجعل الدفاع عنها كدفاع الإنسان عن أنفه، إذا خاض حربا أو شهد قتالا، وإذا علمنا أن الأنف رمز الشرف والعزة والكبرياء لدى العربي أدركنا مدى ما يبذله لصونه والحفاظ عليه.

ويتبع الدفاعَ عن القبيلة الدفاعُ عن أرضها وحماها، ذلك أن الاعتداء عليهما اعتداء على القبيلة نفسها، والذود عنهما ذود عن شرفها ومكانتها بين القبائل الأخرى. وهذا ما رآه عمرو بن يربوع الغَنَوي وعبر عنه في شعره، مفتخرا بأنه ذاد مع قومه عن نجد بفرسان أشداء، وخيل قوية، وسلاح شائك(٣٢).

وفضلا عن الدفاع عن القبيلة وحماها فإن من شأن الشاعر ذي النزعة العصبية أن يفتخر بقوتها وشجاعة فرسانها، الذين في مقدورهم خوض المعامع والحروب، وشنّ الغارات، وقتل الأبطال أو أسرهم، وهزيمة الأعداء والخصوم.

وهو في هذا يعلي من هيبة القبيلة وسطوتها، ويباهي بتصوير فتكها وسلبها ونهبها، واختراق حمى أعدائها، على نحو ما صوره لنا عمرو بن قَمِيئَة من مشهد لغارة شنتها قبيلته ثَعْلَبَة بن عُكابة، على أعدائها، حين قال(٣٣):

وَمَلْمُومةٍ لا يَخْرِقُ الطَّرْفُ عَرْضَها	لها كوكبٌ فَخْمٌ شديدٌ وضُوحُها
تسير وتُزجي السَّمَّ تحت نحورها	كريهٌ إلى مَنْ فاجأتْهُ صَبُوحُها
على مُقْذَحِرّاتٍ وهنَّ عوابسٌ	ضَبائِرُ موتٍ لا يُراحُ مُريحُها
نَبَذْنا إليهم دعوةً، يا آل مالكٍ،	لها إرْبَةٌ إنْ لم تجد مَنْ يُريحُها
فَسُرْنا عليهم سَوْرَةً ثعلبيَّةً	وأسيافُنا يجري عليهم نُضُوحُها
وأرماحُنا يَنْهَزْنَهم نَهْزَ جَمَّةٍ	يعود عليهم وِرْدُنا فنَميحُها
فما أتلفتْ أيديهمُ من نفوسنا	وإنْ كَرُمَتْ فإننا لا نَنُوحها
فقلنا: هي النُّهْبَى وَحَلّ حرامُها	وكانت حِمًى ما قبلَنا فَنُبيحُها

لقد أبان الشاعر عن أن أقوى مظاهر العصبية تبرز في أشد الظروف وأقساها، وهل يكون ذلك إلا عند القتال ومواجهة الفرد للموت في ساحة المعركة؟ وقد جُلّيت تلك العصبية أكثر جلاء في هذه الصيحات باسم القبيلة، وكأن الفارس كان يحاول أن يحتمي بعصبيته من طعنات الرماح وضربات السيوف، أو كأنه كان يريد أن يؤكد لنفسه أنه ليس وحيدا في المعركة، وإنما هو من الجماعة التي ينادي باسمها.

لقد انتشى الشاعر العربي زهواً بقوة قبيلته وعزتها ومنعتها، فكان يعلن انتصاراتها على القبائل المعادية بأشعار تلتهب حماسة، وسرعان ما تتناقلها الركبان، ويغدو صداها مدويا في أرجاء الجزيرة العربية كلها، فترهب العدو والخصم، وتفرح الصديق والحليف. وعلى شاكلة تلك الأشعار قول عامر بن الطفيل(٣٤):

صَبَحنا الحيَّ من عَبْسٍ صَبُوحاً	بكأسٍ في جوانبها الثَّميلُ
وأبقينا لِمُرَّةَ يومَ نَحْسٍ	وإخوتهم فقد ذهب الغليلُ
فَذَلَّ الأبلخُ المختالُ إنّا	نُخَيِّسُهُ وَعَزَّ بنا الذَّليلُ

وليس أبعث لفخر الفرد من انتصار قبيلته، وعودتها إلى أحيائها محملة بالغنائم تجرّ وراءها الأسرى، وخاصة سبايا النساء؛ إذ إنّ سبيهن مظهر

لمدى قوة القبيلة وسطوتها، ولمدى ضعف العدو وتخاذله، لأن القبيلة لا تتخلى عن نسائها إلّا بعد أن تهزم هزيمة منكرة، ثم إن بقاء السبايا بأيدي القبيلة المنتصرة يذكرها دائما بفوزها، ويُبقي لظى محرقاً في قلوب أعدائها، وعارا مشينا لاصقاً بهم أمام القبائل الأخرى. ولهذا وجدنا بِشر بن أبي خازم الأسدي يفخر بانتصار قومه على بني عامر وسبي نسائهم(٣٥):

لحوناهُمُ لَحْوَ العُصِيِّ فأصبحوا ... على آلةٍ يشكو الهوانَ حَرِيبُها
تبيتُ النساءُ المُرْضِعاتُ بِرَهْوَةٍ ... تَفَرَّأُ من هَول الجَنانِ قلوبُها
بني عامر إنّا تركنا نساءكم ... من الشَّلِّ والإيجَافِ تَدْمَى عُجُوبُها
عَضَاريطُنا مُسْتَحْقِبو البِيضِ كالدُّمَى ... مُضَرَّجَةً بالزَّعفرانِ جيوبُها

فهم قد أغاروا على بني عامر فهزموهم شر هزيمة، ثم سطوا على أموالهم ومتاعهم فانتهبوها، أما نساؤهم فقد سُبيت مع رُضَّعها، وجُمعت في منخفض من الأرض، وقلوبها واجفة خائفة، تكاد تُقَطَّع من فزعها وجزعها، ثم حملت على متون الخيل مردفات خلف العبيد، وأخذت الخيل تسرع بهن، وهن يعولن ويصرخن، بعد أن كن حرائر ممتنعات في بيوتهن. لقد أذلّوا بني عامر مرتين: مرة حين هزموهم في أرض المعركة، ومرة أخرى حين سبوا نساءهم مع أطفالهن، وتركوا للعبيد والأجراء أمرهن كي يحملوهن مع الغنائم والأسلاب والأمتعة.

وشبيه بذلك أيضاً ما يصوره لنا عوف بن عَطِيَّة التَّيْميّ لمشهد نسوة قد أغير عليهن فهن يتراكضن فزعات جزعات قد حُسرت رؤوسهن؛ وسقطت الخُمُر عن وجوههن، وتهلهلت ثيابهن وذلك كله خشية السبي والعار اللذين سيلحقان بهن(٣٦).

إن اعتداد العربي بقوة قبيلته، واعتزازه بمقدرتها، وتعصبه الشديد نحوها، جعلته لا يرى قوة فوق قوتها، ولا مقدرة تفوق مقدرتها. ويبيّن لنا الشعر أن رؤيته هذه لا تقتصر على القبائل التي حوله فقط، وإنما تتعداها لتشمل الملوك أيضاً، فمهما كانت عظمة الملك وهيبته وسيطرته فإنها لا تنال

من مكانة القبيلة في نفسه؛ إذ هي عنده أعظم منزلة وأرقى شأنا، لأنها تمنع أي ملك كان من أن يتطاول عليها، أو أن يحاول إخضاعها.

وذلك ما رآه عامر بن جُوَيْن الطائيّ في قبيلته، حين شرع المنذر بن النعمان الأكبر ملك الحيرة، بتهديده وتهديد قومه، فرد عليه عامر قائلاً(٣٧):

تَعَلَّمْ، أَبَيْتَ اللعنَ، أنَّ قناتَنا ... تَزيدُ على غَمْزِ الثِّقافِ تَصَعُّبا
أتوعِدُنا بالحرب، أُمُّكَ هابِلٌ، ... رويدَكَ بَرْقاً، لا أبالَكَ، خُلَّبا
إذا خَطَرَتْ دوني جَديلةُ بالقَنا ... وحامتْ رجالُ الغَوْثِ دوني تَحَدُّبا
أَبَيْتُ التي تَهْوَى وأَعْطَيْتُكَ التي ... تسوق إليك الموتَ أَحْرَجَ أَكْهَبا

إن قوة طَيٍّء لتضاهي قوة النعمان وتفوقها، لهذا فإن وعيده لهم ما هو إلا كبرق لامع خادع لا غيث وراءه، وخاصة إذا اجتمع حيّاها، جَديلة والغوث، وامتطى أبطالهما صهوات الخيول وأشهروا السيوف والرماح، وارتصت صفوفهم كبنيان مرصوص، فعندئذ لا يجد الملك لديهم الا أسلحة تجلب الموت الأسود له. لقد رأى الشاعر في قبيلته درعا حصينا يمنع أشد الملوك من اختراق حماه أو زعزعة أركانه.

وقد يحس الشاعر أن ملكاً ينوي بقبيلته شراً، وأنه يتحين سانحة للغدر بها والقضاء عليها، عند ذلك ينبري للدفاع عنها مظهرا ما تتصف به من عزة قعساء وشرف تليد ونسب عريق، وما تتميز به من قوة وشدة وبأس في المعارك والحروب، لعله بذلك يرهب الملك وينذره عاقبة غدره وخيانته. وهذا ما نراه عند الشاعر يزيد بن الخذّاق الأسديّ، حين شعر أن النعمان بن المنذر يضمر العداء لقبيلته، وأنه ينوي الغدر بها والإغارة عليها، فأنشأ يخاطبه(٣٨):

نُعمانُ إنَّكَ خائنٌ خَدِعٌ ... يخفي ضميرُك غيرَ ما يُبْدي
فإذا بدا لكَ نَحْتُ أَثْلَتِنا ... فعليكَها إنْ كُنْتَ ذا حَرْدِ
يأبى لنا أنّا ذَوُو أَنَفٍ ... وأصولُنا من مَحْتِدِ المجدِ

إنْ تَغْـزُ بـالـخَـرْقـاءِ أُسـرَتَـنـا ... تَـلقَ الـكـتـائـبَ دونـنـا تَـرْدِي
أَحَسِبْتَنـا لـحـمـاً عـلى وَضَـمٍ ... أم خِلْتَنـا في البـأس لا نُـجْـدِي
وَمَكَـرْتَ مـعـتـلـيـاً مُـخَـنَّـتَـنَـا ... والمَكـرُ مـنـك عـلامـةُ العَـمْـدِ
وهـزَزت سيفَـك كـي تحـارِبَـنـا ... فـانـظرْ بسيفـك من بـه تُـرْدِي

ولا يقف الأمر عند تهديد الشاعر للملوك وإنما يتعداه إلى التطاول عليهم، أحياناً، والنيل منهم؛ إمّا بإذلالهم كالذي نُسب إلى هشام بن خَلَف الكِنانيّ من فعلة شنعاء، تهدف إلى إهانة النعمان بن المنذر في حجه إلى مكة(٣٩). وإمّا بالتعدّي عليهم وضربهم، كما زُعم من ضرب مَعْبَد بن عُصْم التغلبيّ للملك شُرَحْبيل الكِنْدي بقوسه وشجِّه بها، لأنه نال من قبيلته(٤٠). وإما بقتلهم كما هو مشهور عن قتل عمرو بن كلثوم للملك عمرو بن هند. وقد أشار إلى تلك الحادثة جابر بن حُنَيّ التغلبيّ في قوله(٤١):

ألا تـسـتـحـي مـنـا ملوكٌ وتـتّقِـي ... محـارِمَـنـا لا يَبُـوْءُ الـدَّمُ بـالـدَّمِ
نعاطي الملوكَ السِّلْمَ ما قصدوا بنا ... ولـيـس علينـا قـتـلُهم بِـمُـحَـرَّمِ
وكائِنْ أَزَرْنَا المـوتَ من ذي تحيّةٍ ... إذا مـا ازْدَرانـا أو أَسَفَّ لمَـأْثَمِ

وهكذا صور الشعر لنا موقف الإنسان العربي من قبيلته تصويراً أبان فيه عن مدى حبه لها ومشاعره تجاهها، وقد جُلّي ذلك في دفاعه عنها ومناجزته لأعدائها، وفي نظرته إليها على أنها قوة ضاربة، لا يستطيع الملوك الأقوياء أن ينالوا منها. ويبدو أن هذه الرؤية هي التي ثبَّتت الروح الجماعية والعصبية القبلية في كيانه، فجعلته أكثر التحاما بالقبيلة وأشد نزوعا إليها.

٤ ـ الحنين إلى موطن القبيلة:

لا شك في أن معظم القبائل العربية، التي توزعت في أرجاء الجزيرة العربية، كانت في حركة مستمرة وسعي دائب وراء الماء والمرعى. بَيْدَ أن تنقل القبائل وارتحالها لا يعنيان أنها كانت تنأى بعيدا عن أرضها، فلا يُعرف لها موطن، ولا يُحد لها مكان، ذلك أن أغلب تلك القبائل في العصر

الجاهلي كان لها أماكن معروفة ومواضع تختص بها من دون غيرها. وحتى إذا دفعتها السنة والحاجة الى أن تنتجع بلادا أخرى حيناً من الزمن فإنها لا تلبث أن تعود إلى أراضيها ومنازلها.

وقد حفل الشعر، في مواضع لا تحصى منه، بذكر أماكن القبائل، وكثيراً ما يكتفي بذكر اسم الموضع للدلالة على القبيلة التي تقيم فيه. وكان الأخنس بن شهاب التغلبي من الشعراء الذين قرنوا عددا من القبائل بأماكنها(٤٢).

لِكلِّ أُناسٍ من مَعَدٍ عِمارةٌ	عَروضٌ إليها يلجؤون وجانبُ
لُكَيْزٌ لها البَحْرانِ والسِّيفُ كلُّهُ	وإنْ يأتِها بأسٌ من الهندِ كاربُ
وَبكْرٌ لها ظَهْرُ العِراقِ وإنْ تَشَأ	يَحلْ دونها من اليَمامةِ حاجِبُ
وصارتْ تميمٌ بين قُفٍّ وَرملَةٍ	لها من جبالٍ منتأى ومذاهِبُ
وكلبٌ لها خَبْتٌ فَرَمْلَةُ عالجٍ	إلى الحَرَّةِ الرَّجْلاءِ حيث تُحاربُ
وبَهْراءُ حيٌّ قد علمنا مكانَهم	لهم شَرَكٌ حول الرُّصافةِ لاحِبُ
وغارتْ إيادُ في السَّواد ودونها	برازيقُ عُجْمٍ تبتغي من تُضاربُ

وكما هو واضح في الأبيات فإن الشاعر قد خص القبائل بأمكنة رحيبة، ولم يقيّدها بمواضع محددة، مما يدل على أنها، مهما تنقلت وارتحلت، تعود في نهاية المطاف إلى مواطنها. ذلك أن منازل القبيلة واضحة معروفة لا تتبدل إلاّ لدواعي قاهرة وأسباب قوية، كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها، أو أن يصيبها القحط سنين متتابعة، فعندئذ تضطر إلى ترك ديارها للبحث عن ديار جديدة. وهذا ما حدث لإياد إذْ أزاحها بنو عبد القيس عن مواطنها في البحرين، ثم شتت الفرس شملها في العراق(٤٣). وقد ألمح الأخنس في البيت الأخير إلى ما أصاب إيادا من تشتيت على أيدي الفرس.

ونحن بذلك إنما نحاول أن نعطي صورة عامة عن القبائل وأمكنتها لنمهد الحديث عن حنين الشعراء إلى مواطن قبائلهم التي رحلوا عنها

راضين أو مضطرين لذلك الرحيل.

ففضلاً عن القبائل السابقة ومواطنها، التي وردت في شعر الأخنس، فإننا نجد، من القبائل العدنانية، قريشاً قد نزلت بمكة وما جاورها، وثَقِيفاً بالطائف، وهُذيلا بقرب جبال السَّرَاة بالحجاز، وكِنانة بأرض تِهامة. كذلك كان بنو عامر بن صَعْصَعَة يستقرون غالباً، غربي نجد، وعبس وذبيان وسائر غطفان كانوا ينزلون بنجد شرقي يثرب. كما نزلت بنجد أيضاً ضَبَّة وتميم، وانحدر قسم منهما إلى اليَمامة وهَجَر. وكانت معظم قبائل ربيعة تنتشر في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، بين عُمان حتى أطراف العراق والجزيرة.

ونجد، من القبائل القحطانية، قبائل حِمْيَر باليمن وجنوبي الجزيرة العربية، ثم من القبائل التي هاجرت من الجنوب واستقرت في أنحاء مختلفة الأوسَ والخزرجَ بيثرب وما حولها، وطَيّىء بين جبلَي أجأ وسلمى، والمناذرة بالحيرة، والغساسنة ببلاد الشام. ولا يخفى أن شعر الأطلال زاخر بالإشارات إلى تلك الأمكنة، مفصِّلاً فيها تفصيلاً واسعاً.

ومما لا ريب فيه أن الشعر الجاهلي صوّر شدة تعلق الإنسان العربي بمواطن القبيلة ومرابعها، وبيّن فيه الشعراء أن القبيلة كلها تظل ملتصقة بأرضها التي تعدّها حمىً لها، لا تستطيع القبائل الأخرى الاعتداء عليه، حتى إذا أصابها أمر اضطرها إلى مغادرة منازلها والبعد عن ديارها فإنها تبقى تحن وتصبو إلى تلك المعاهد، ويبقى الفرد فيها مشوقاً إلى أرض القبيلة الأم، يشعر نحوها بحنين طاغ وشوق جارف.

وقد عبّر عن مثل ذلك الشعور ثَعْلَبة بن غَيْلان الإياديّ أبدع تعبير، حين أثارته ذكرى مواطن قبيلته إياد في البحرين، وكانوا، كما مر بنا، قد فارقوها إلى سواد العراق، وابتعثه الشوق والحنين إلى مراتع الطفولة فيها، وتتالت مشاهد الماضي على مخيلته بمختلف الصور المحببة، فاهتزت نفسه ألماً وحرقة لما آل إليه مع قبيلته من غربة دائمة، حافلة بضروب الذل

والهوان(٤٤):

تَحِنُّ إلى أرض المُغَمَّسِ ناقتي ... ومن دونها ظهرُ الجُرَيْبِ فَرَاكِسُ
بها قَطَعَتْ عنا الوَذِيمَ نساؤنا ... وخَرَّسَتِ الأبناء فيها الخَوارِسُ
إذا شئتُ غنَّاني الحمامُ بأيْكَةٍ ... وليس سواءً صوتُها والعَرانِسُ
فيا حبَّذا أعلامُ بَيْشَةَ واللِّوى ... ويا حَبَّذا أخشافُها والجَوارِسُ
أقامت بها جَسْرُ بنُ عَمْرٍو وأصبحتْ ... إيادٌ بها قد ذَلَّ منها المَعاطِسُ

وقد يضطر الشاعر بمفرده إلى مفارقة القبيلة وموطنها، وتنأى به الغربة بعيدا عن مرابعها ويطيح به الفراق إلى أرض لا يجد فيها قريباً أو حبيباً، عند ذلك تشتد به المواجع، وتنتابه الحسرات، وتتسعَّر به الأشواق إلى رؤية المهد الأول، فتجيش النفس أسى وحسرة، وتنزع متلهفة نحو موطن القبيلة. وهذا ما أصاب زامل بن عُفَيْر الطائيّ الذي نأت به ديار الغربة حتى حطته عند الحارث الأكبر الغساني، فمدحه ونال عنده منزلة ومقاما كريماً، لكن وطن القبيلة ظل يجذبه إليه، وظل يجد نفسه غريباً في قوم غرباء(٤٥):

أبلغِ الحارثَ المُرَدَّدَ في المَكْـ ... ـرُماتِ والمجدِ جَدّاً فَجَدًّا
أنني ناظرٌ إليك ودوني ... عاتقاتٌ غاوَرْنَ قرباً وبُعْدا
آزِلٌ نازلٌ بمثوًى كريمٍ ... ناعمُ البالِ في مَراحٍ ومَغْدَى
غيرَ أنَّ الأوطانَ يجتذبُ المَرْ ... ءَ إليها الهوى وإن عاش كَدًّا
وتأبَّيَّ بالشآم مُفيدي ... حَسَراتٍ يَقْدُدْنَ قلبي قَدًّا
ليس يستعذِبُ الغريبُ مقاما ... في سوى أرضِه وإن نال جَدًّا

أما المتلمّس، فإنه، حين حرم عليه عمرو بن هند العودة إلى بلاده في أرض العراق، نازعته نفسه شوقا وتحنانا إلى موطن القبيلة، وملّت تجواب البلدان والآفاق على متن الناقة، فإذا هي تخلع مشاعرها على صاحبة حلها وترحالها، وتندمج معها في وحدة القلق والمعاناة، وإذا صوت النفس وصوت الناقة يغدوان صوتاً واحداً يعبّر عن ألم الغربة وقسوة البعد(٤٦):

حنَّتْ قَلُوصي بهـا والليـلُ مُـطَّرِقٌ ... بعـد الهُـدُوِّ وشـاقتها النَّـواقيسُ
أَنَّى طَـرِبْتِ ولم تُلْحَي على طَرَبٍ ... ودون إلـفِـكِ أَمْـراتٌ أمـالـيسُ
حَنَّتْ إلى نَخْلَةِ القُصوى فقلتُ لها: ... بَسْـلٌ عليـكِ ألا تلك الـدَّهَـاريسُ
أُمِّي شـآميـةً، إذْ لا عـراقَ لنـا، ... قـومـاً نَـوِدُّهُم إذْ قـومُنـا شُـوسُ
لن تسلكي سُبُـلَ البَـوْبَـاةِ مُنْجِـدَةً ... ما عاش عمـرٌو وما عُمِّـرتَ قابـوسُ

وشبيه بهذا ما أصاب دَوْسَرَ بنَ ذُهَيْلٍ القُرَيْعِيَّ حين فارق موطنه نجداً، وامتدّ زمن غربته، لكن نفسه ظلت أمينة لعهدها القديم كما ظلت ناقته تطرب كلّما لقيت قلاصاً آتية من مراتعها الأولى(٤٧).

ونرى في الشعر أن المرأة لم تكن أقل تعلقاً بموطن القبيلة من الرجل، فقد عانت رامةُ بنت حُصَين الأسديّة معاناة شديدة حين شحطت بها النوى بعيداً عن ديار قومها، وألقتها في قرية من الحضر. لقد اشتدت بها نوازع الحنين إلى مرابع حيّها، ومراتع صباها، فطفحت نفسها بفيض من الشوق إليها، وهفت إلى النسائم الجنوبية التي تهب عليها، وشامت ببصرها إلى لمعان بروقها، وتذكرت بأسى وحسرة خضرة مرابعها وتجاوب صفير طيورها في هدأة الليل وقارنته بصياح الديكة ونقيق الضفادع التي تسمعها في غربتها، فإذا البون شاسع والفرق كبير، وإذا قلبها ينبض بحب مواطن القبيلة ومناخها وحيوانها وكل ما يمت إليها(٤٨):

أُلامُ على نجدٍ ومن يكُ ذا هـوى ... بنجدٍ يَهِجْهُ الشوقُ شتّى نـزائعُـهْ
تَهِجْـهُ الجنوبُ حين تغـدو بنَشْـرِهـا ... يـمـانيـةً والبـرقُ إنْ لاحَ لامِعُـهْ
ومَنْ لامني في حبِّ نجـدٍ وأهـلَهُ ... فَلِيمَ على مِثْـلٍ وأوعَبَ جـادِعُـهْ
لـعمـرُكَ لَلْغَمْرانِ غَـمْـرا مُقَلَّدٍ ... فـذو نَـجَـبٍ غُـلاَّنُـه ودوافـعُـهْ
وخَـوٌّ إذا خَـوٌّ سَـقَـتْـهُ ذِهـابُـهُ ... وأمْـرعَ مـنـهُ تِيـنُـهُ وربـائِعُـهْ
وصـوتُ مَكـاكيٍّ تَجـاوَبُ مَوْهِنـا ... من الليل، مَنْ يأرَقْ لـه فهْوَ سـامِعُهْ
أحبُّ إلينـا من فـراريـجِ قـريـةٍ ... تَـزاقى ومن حيٍّ تَنِقُّ ضفـادِعُـهْ

وهكذا أوضح لنا الشعر عن أن تعلق الإنسان العربي بالقبيلة ارتبط بتعلقه بمواطنها وديارها، فأضحى حبه لها ممزوجاً بحبه لأرضها، ونزوعه نحوها مقروناً بنزوعه إلى منازلها، ومن ثَمَّ أظهر الشعر أن دفاعه عن القبيلة يضاهي دفاعه عن موطنها، ذلك الموطن الذي يقترن في ذهنه بالقبيلة، ولا يمكنه بأية حال أن يفصل بينها وبين ديارها، لأنهما يشكلان معا حماه الذي يبذل نفسه وماله دفاعاً عنه.

٥ ـ رثاء أفراد القبيلة:

إن الأشعار السابقة صورت الإنسان العربي وقد تغلغل في نفسه حب قبيلته حتى غدا هو والقبيلة كيانا واحدا، يسره فرحها، ويؤلمه حزنها. ولعل مرد ذلك يعود إلى شمول الروح الجماعية بين الأفراد وإحساسهم بالمصير المشترك، فضلاً عن شعورهم بارتباط وجودهم بوجود القبيلة وحياتهم بحياتها. وإذا كان الشعراء قد جَلُّوا ذلك في تصويرهم لتمسك الفرد بنسب القبيلة والخضوع لها ولسيدها، وللدفاع عنهما، ثم لحنينه الجارف إلى ديارها، فإن رثاءهم لقتلاها ولمَنْ فقد من أبنائها كان مظهرا أكثر تعبيرا عما تكنّه عواطف الفرد من ميل شديد تجاه قومه ونزوع قوي إليهم.

ولعل ما زاد في إظهار صورة رثاء أفراد القبيلة في الشعر أن الحياة التي عاشوها كانت غالباً عرضة لخطر الهلاك، وكان الواحد منهم يجزع جزعاً شديداً أن يسمع، بعد كل غارة يقوم بها قومه أو تقوم بها قبيلة أخرى عليهم، صوتَ النعي يدوّي بأسماء رجال عشيرته الذين جُدِّلوا على أرض المعركة، حينئذ تتنزّى نفسه حزناً، ويفعم قلبه أسى، فيحرّم على نفسه اللهو واللذائذ، ويعكف على ندبهم والنواح عليهم. ولا ريب في أن نفسه تمتلىء حقداً وبغضاً وضغينة على الأعداء، تتبدّى فيما يؤلي على نفسه أحيانا من الأيْمانِ المغلظة من أنه سينتقم لقومه أشد الانتقام.

ولنا في شعر الرَّبيع بن زياد العبسي أفضل شاهد على ذلك، فقد أتاه نعي مالك بن زهير، وهو أحد أشراف بني عبس، وعلم أن بني فَزَارة غدرت

به، وقتلته، فثار به الغضب، وهاجت كوامن الثأر في نفسه، فآلى على نفسه أن يعتزل النساء، وأن يعدّ ما لديه من قوة وعدة وعتاد حتى يثأر له من قاتليه(٤٩):

إنّي أرقتُ فلم أُغمِّضْ حارِ ... من سَيِّىء النبأ الجليل السَّاري
مِنْ مثلِهِ تُمسي النساء حواسِراً ... وتقوم مُعْوِلةً مع الأسحارِ
أفبعدَ مقتلِ مالكِ بنِ زهيرٍ ... ترجو النساءُ عواقبَ الأطهارِ
ما إنْ أرى في قتله لذوي القُوَى ... إلاّ المَطِيَّ تُشَدُّ بالأكْوارِ
ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفاً ... يَقْذِفْنَ بالمُهَراتِ والأمْهَارِ
ومَسَاعِراً صَدَأُ الحديدِ عليهم ... فكأنما تُطلَى الوجوهُ بِقَارِ

وقريب من هذا ما عبّر عنه في شعره دريدُ بن الصِّمَّة الذي كبر عليه مقتل أفراد قومه على يد بني الحارث بن كعب، فانبرى يرثيهم رثاء ينطوي على تهديد ووعيد لبني الحارث بانتقام ما بعده انتقام(٥٠). وكان عبد الله بن ثَوْر العامري قد أثاره ما رأى من عيون تذرف حزنا على من صُرِّع في المعركة من قبيلته، فدفعه الحزن والغضب إلى التأهب والإعداد لجولة أخرى يثأر لهم فيها(٥١).

وأولئك الأفراد الذين صُرِّعوا، وفقدتهم القبيلة، ليسوا في نظر الشاعر إلا أناساً في منتهى البطولة والسؤدد والشرف؛ فهم يجمعون الخلال الحميدة كلها، ويتصفون بأنبل الصفات وأفضلها. أليسوا هم الذين قد ضحوا بأنفسهم فداء لقبيلتهم وإعلاء لشأنها؟ أليسوا هم قد جادوا بدمائهم فبزّوا أكرم الكرماء؟ وقد عكس لنا هذه الرؤية شدّاد بن الأسود في رثائه لقتلى قومه يوم بدر(٥٢).

تُحَيِّي بالسلامةِ أُمُّ بَكْرٍ ... وهل لي بعد قومي من سلامِ؟
فماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... من القَيْناتِ والشَّرْبِ الكرامِ
وماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... من الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنَامِ

وكَمْ لـك بـالـطَّوِيِّ طَـوِيِّ بَـدْرٍ | من الحَـوْمـاتِ والنَّعَمِ المُسَـامِ
وكم لـك بـالـطَوِيِّ طَـوِيِّ بَـدْرٍ | من الغـايـاتِ والـدُّسُـعِ العـظامِ
وإنَّـكِ لـو رأيـتِ أبـا عَـقِـيـلٍ | وأصـحـابَ الـثَّـنـيَّـةِ من نَـعَـامِ
إذاً لـظَلِلْتِ مـن وَجْـدٍ عـلـيـهـم | كـأُمِّ السَّقْبِ جـائـلةِ الـمَـرَامِ

لقد تزاحمت الأشجان في نفس الشاعر، وتفاقم فيها الحزن، وخيم اليأس الأسود على قلبه، وأخذت التساؤلات تطرق عقله وفكره، كيف يعيش، وقد قتل سادة القبيلة وعظماؤها؟ وأية قيمة لوجوده، وقد تلاشى وجود أشراف قومه؟ لا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر جعل أفول حياة قومه في منزلة أفول حياته هو، ولم تعد الحياة لديه جديرة بالمسرة والمتعة واللهو، بعد أن أصابت المنايا أفراد العشيرة وطواهم الردى.

ولعل ما كان يلهب ثائرة الشعراء، ويدفعهم إلى التعبير في أشعارهم عن مزيد من الحزن على أفراد القبيلة، ومزيد من الغضب لمقتلهم، هو الحياةُ القبلية وما كان شائعاً فيها من اجتماع الحي لبكاء القتلى وندبهم والنواح عليهم، ثم إعلان مظاهر الحزن والأسى أمام القبائل الأخرى. وهذا ما فعلته قريش عقب يوم بدر؛ إذ ورد أنها «ناحت على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكة إلا فيها نَوْحٌ، وجَزَّ النساء شعرَ الرؤوس. وكان يُؤتى براحلة الرجل منهم، فتوقف بين أظهرهم، فينوحون حولها»(٥٣). ويبدو أن إطالة مدة الحزن كانت تهدف إلى تأجيج نيران الانتقام في صدور أبناء القبيلة لكي يثأروا لقتلاهم من الأعداء.

وتشير الأشعار، في هذا المجال، إلى أن النساء كنَّ يقمن بالرثاء أيضاً على أفراد القبيلة فضلاً عن ندبهن ونواحهن، وذلك لِما لهن من رقة شعور ولطف إحساس، ولِما ينتابهن من ألم المصاب بفقد الأحباب والأزواج والأقرباء، الذين هم عمادهن في معاشهن، ودرعهن في حياة خطرة تعرضهن للسبي والاختطاف.

وقد عبرت الخِرْنِق بنت بدر عن ذلك خير تعبير حين أتاها نَعْيُ أفراد

عشيرتها ينبئها بأن سهام المنايا قد أردتهم صرعى في معركة دارت رحاها بينهم وبين أعدائهم ؛ فإذا هي لا ترى فيهم إلاّ فرسانا أقوياء، وأجوادا كرماء، وأشرافا نبلاء، قد حازوا كل مكرمة ؛ فأيديهم سخية بالعطاء، وذيلهم طاهر من الأدران، وشجاعتهم مضرب الأمثال، وعَطْفُ بعضهم على بعض لا يقف عند حد، حتى يمتنع على المرء أن يميز غنيهم من فقيرهم وموسرهم من معسرهم(٥٤):

لا يَبْعُدَنْ قومي الذين هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ
النازلون بكلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُون معاقِدَ الأزْرِ
قومٌ إذا ركبوا سمعتَ لهم ... لَغَطاً من التَّأْيِيهِ والزَّجْرِ
والخالطون نَجِيتَهُمْ بنُضارِهم ... وذوي الغنى مِنهم بذي الفَقْرِ
هذا ثَنائي ما بَقِيتُ لهم ... فإذا هَلَكْتُ أجَنَّنِي قَبْري

ونستدل من بعض الأشعار على أن الرثاء لم يكن مقتصراً على أفراد القبيلة الذين قتلوا في المعارك والحروب، وإنما قد يرثي الشاعر قبيلته إذا ألمت بها المصائب، وأحدقت بها الأخطار فمزقتها كل ممزق، وأهلكت كثيراً من أبنائها. كالذي نجده لدى أبي دُوَاد الإياديّ من رثاء حار على قبيلة إياد، التي، كما أشرنا من قبل، قد أُجليت عن ديارها بالبحرين إلى سواد العراق، ثم فني كثير من أفرادها في قتال القبائل والأعاجم هناك، مما أحدث أعظم الأثر في نفس أبي دُوَاد، عبر عنه في قوله(٥٥):

لا أَعُدُّ الإقتارَ عُدْماً ولكنْ ... فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعدامُ
من رجالٍ من الأقاربِ فادُوا ... من حُذاقٍ هُمُ الرؤوسُ العظامُ
فهمُ للملائمين أَناةٌ ... وعُرامٌ إذا يُرادُ العُرامُ
وسَماحٌ لدى السنين إذا ما ... قَحطَ القَطْرُ واستَقَلَّ الرِّهامُ
وشبابٌ كأنهم أُسْدُ غِيلٍ ... خالطتْ فَرْطَ حَدِّهِم أحلامُ
وكهولٌ بنى لهم أَوَّلُوهُم ... مأثُراتٍ يَهابُها الأقوامُ

سُلِّطَ الدهرُ والمَنونُ عليهم ... فلهم في صَدَى المقابر هَامُ
فعلى إثرهمْ تَسَاقَطُ نفسي ... حَسَراتٍ وذكرُهم لي سَقَامُ

وهكذا نجد أن رثاء الأفراد لدى الشعراء كان مظهراً من مظاهر النزعة العصبية؛ إذ عبروا فيه عن مدى الرابطة التي تشد ما بين أفراد القبيلة من أواصر المحبة والتعاطف والتناصر، حتى إذا أصيب واحد منهم، وأودت به إصابته، تداعى له سائر الأفراد بالحزن والأسى من جهة، وبالغضب والتأهب للانتقام من جهة أخرى.

وخلاصة القول أن الشعر أبرز لنا العصبية القبلية لدى الإنسان العربي متجلّية في أشكال عدة، من التزام قبلي، ومن ولاء للقوم وسيدهم، ومن دفاع عنهم، وحنين إلى ديارهم، ورثاء لأفرادهم. وهذا ما يجعلنا نعتقد، معتمدين في ذلك على ما قدمناه من أقوال الشعراء أنفسهم، أن النزعة العصبية كانت أهم المقومات الّتي استندت إليها الحياة القبلية في العصر الجاهلي، والتي كانت تتحكم في علاقة الفرد الاجتماعية بقبيلته، وكلّما كانت تلك النزعة طاغية عليه اشتد التحامه بالقبيلة وأفرادها، وقوي ارتباطه بديارها وحِماها.

الحواشي والمصادر والتعليقات

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٦ ، ط دار الشعب ، القاهرة .

(٢) بحث في علم الجمال : ص ٢٤ ، لجان برتليمي ، ترجمة أنور عبد العزيز ، ط القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٣) الأصمعيات : ص ١٠٧ ، للأصمعي ، تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٧ .

(٤) تاريخ الطبري : ١ / ٢٢٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ .

(٥) المفضليات : ص ٦٩٥ - ٦٩٦ ، للمفضل الضبي ، شرح الأنباري ، ط بيروت ١٩٢٠ .

(٦) ديوان سلامة بن جندل : ص ١٥٣ - ١٥٤ ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، ط حلب ١٩٦٨ .

وذر بن الأسنة : محددتها ، أو أنها أُشربت سماً . والأوساق : الأجمال . والعندم : نبات يُصبَغ به .

(٧) ديوان الأعشى الكبير : ص ١٣١ ، تحقيق محمد محمد حسين ، ط القاهرة ١٩٦٠ .

(٨) المؤتلف والمختلف : ص ٤٢ ، للآمدي ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط القاهرة ١٩٦١ .

(٩) شرح القصائد العشر : ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، شرح التبريزي ، ط حلب ١٩٧٣ .

(١٠) المفضليات : ص ٦٢٦ . والقعساء : الثابتة . ونختطم العدى : نضرب خطمهم ، والخطم الأنف ، ويطدون الأرض : يشدونها ويثبتونها .

(١١) خزانة الأدب: ٣/ ٩٠، للبغدادي عبد القادر، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٦٧.

(١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٣) الحيوان: ٣/ ٤٧١، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط البابي الحلبي، مصر ١٩٦٥.

(١٤) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي: ص ٤٦ ـ ٤٨، تحقيق خليل إبراهيم العطية، ط بغداد ١٩٧٠.

والشزر: فتل الحبل مما يلي اليسار، وهو أشد لفتله. والمريرة: من «المِرَّة» وهي إحكام الفتل ثم أريد بها القوة. والقحم: الشيخ الكبير. والضِّرْع: الغَمْر الضعيف.

(١٥) ديوان الأعشى الكبير: ص ٣١.

(١٦) عيون الأخبار: ١/ ٢٢٦، لابن قتيبة، ط دار الكتب، مصر ١٩٢٥.

(١٧) شرح القصائد العشر: ص ١٧٤ ـ ١٧٨.

(١٨) الحيوان: ١/ ٣٣٠، والشرح عن الجاحظ.

(١٩) مقدمة ابن خلدون: ص ١١٦.

(٢٠) البيان والتبيين: ١/ ٢٣٩، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٦٨.

والصتم: الصحيح القوي.

(٢١) الحيوان: ٥/ ٣٠. وخَلاَها: من «الخَلَى» وهو الرطب من النبات؛ أي جعلها كالسوائم ترداد المرعى بدون قائد.

(٢٢) تاج العروس: مادة (ملأ) للزبيدي، ط مكتبة الحياة، بيروت.

(٢٣) السيرة النبوية: ١/ ١٢٥، لابن هشام عبد الملك، تحقيق السقا

والأبياري وشلبي، ط مصر ١٩٥٥.

(٢٤) ديوان لقيط بن يعمر: ص ٤٧.

(٢٥) ديوان الأعشى الكبير: ص ٤٩.

(٢٦) أمالي المرتضى: ١/٥٣١، للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط بيروت ١٩٦٧.

(٢٧) الحيوان: ٢/٩٦.

(٢٨) المعمَّرون والوصايا: ص ١٢٢، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق عبد المنعم عامر، ط مصر ١٩٦١.

(٢٩) الأغاني: ٥/٤٦، لأبي الفرج الأصفهاني، ط دار الكتب المصرية.

وفرس وقاح: أي ذو حافر صلب، أو هو صلب قوي.

(٣٠) الأصمعيات: ص ٧١. والنَّعامة: فرس الحارث بن عُباد. ولقحت: حملت. وعن حيال: بعد حيال، وحالت الناقة: لم تحمل، وهذا مثل ضربه لشدة الحرب.

(٣١) ديوان المتلمِّس الضُّبعي: ص ١٩ ـ ٢١، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٧٠.

وبُهْثَة: بطن من ضُبَيعة، وهم عشيرة المتلمس. وأينما: أراد في أي مكان كنت فإنني أنتمي إلى قومي.

(٣٢) الحماسة البصرية: ١/٩٧، لصدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، ط حيدر آباد الدكن ١٩٦٤.

(٣٣) ديوان عمرو بن قميئة: ص ٣٢ ـ ٣٧، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥.

وملمومة: مجتمعة، وأراد كتيبة مجتمعة، والكوكب: هنا، معظم الشيء. والمقذحرات: المتهيئات للقتال، والضمير يعود إلى الخيل.

والضبائر: الجماعات. ونهزجمة: أي انتزاع ما فيها. والجمة: كثيرة الماء، وأراد بئراً جمة.

(٣٤) ديوان عامر بن الطُفَيل: ص ٩٤، شرح الأنباري، ط بيروت ١٩٦٣. والثميل: السم.

(٣٥) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٨، تحقيق عزة حسن، ط دمشق ١٩٧٢.

والآلة: الحالة. والحريب: المسلوب المال والمتاع. والشل: السوق والطرد. والإيجاف: السيرُ الشديد. والعُجوب: جَمْع العَجْب، وهو مؤخر كل شيء، وأراد بها الأعجاز. والعضاريط: جمع العُضْروط، وهو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه.

(٣٦) المفضليات: ص ٦٣٧.

(٣٧) ذيل الأمالي والنوادر: ص ١٧٨، لأبي علي القالي، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦.

وأخرج: يقال: ظليم أخرج، أي فيه سواد وبياض. وأكهب: يقال: بعير أكهب، أي في لونه غبرة مشربة سواداً.

(٣٨) المفضليات: ص ٥٩٤ ـ ٥٩٦. والأثلة: الشجرة، وهذا مثل. والحرد: القصد أو الغضب. والخرقاء: الجهل. والمِخَنَّة: الآنف.

(٣٩) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ١/٥٥٢، للبكري عبد الله، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط القاهرة ١٩٣٦.

(٤٠) المحبَّر: ص ٢٠٥، لابن حبيب، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، ط حيدر آباد الدكن ١٩٤٢.

(٤١) المفضليات: ص ٤٢٦. ويبُوءُ: من قولهم باء فلان بفلان إذا كان كفؤاً أن يُقتل به، وقد ترك إعلال الفعل ضرورة. وذو تحية: أراد به الملك. وأسفَّ: دنا.

(٤٢) المفضليات: ص ٤١٤ - ٤١٧. والسِّيف: ضفة البحر. وقفٌ ورملة: موضعان.

وحبال: أراد بها حبال الرمال، وهي معاظمها. وخبت والحرّة: موضعان. والرجلاء: الغليظة. والشَّرك: موضع تشعب الطرق. والبرازيق: جَمْعُ البَرْزَق، وهو المركب، وأراد به هنا الكتيبة.

(٤٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٢٢/٤، لجواد علي، ط بغداد ١٩٧٦.

(٤٤) معجم ما استعجم: ٧٦/١، للبكري عبد الله، تحقيق مصطفى السقا، ط القاهرة ١٩٤٥.

والمغمّس والحريب وراكس أسماء مواضع. والوذيم: ما تُعلّق به التمائم من خيط أو ما شابهه. والخوارس: النسوة اللواتي يطعمن الناس في ولادة المرأة، واسم الطعام الخَرَس. والعرانس: طيور تشبه الحمام. بيشة واللوى: موضعان. والأخشاف: جمع الخشف، وهو ولد الظبي. والجوارس: الطيور المصوِّتة. والمعاطس: الأنوف.

(٤٥) معجم البلدان: مادة (شأم) لياقوت الحموي، ط بيروت ١٩٥٥.
وعاتقات: جمع عاتقة، وهي الفرس الكريمة. وغاورن: نزلن الغور. وآزل: من «أزل الفرسَ» إذ قصَّر حبله ثم سيَّب؛ فكأنه لَّما غادر قومه صار في منزلة الفرس المسيَّب. وتأبِّيّ: من «تأبَّى» والياء للمتكلم.

(٤٦) ديوان المتلمِّس الضبعي: ص ٨٢ - ٩٣. وأمرات: جمع مَرْت، وهي الأرض التي لا نبت فيها.

وأماليس: جمع إمليس، وهي الأرض المستوية أو التي لا نبات فيها. والبسل: الحرام. والدهاريس: الدواهي، وأمِّي شآمية: أي اقصدي ناحية شآمية. وشوس: من «الشَّوَس» وهو النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً. والبوباة: موضع بنجد.

(٤٧) الأصمعيات: ص ١٥٠.

(٤٨) فرحة الأديب: ص ١٣٩، للغُنْدجاني، تحقيق د. محمد علي سلطاني، ط دمشق ١٩٨١.

وانظر معجم البلدان: مادة (غمران). وأوعب: استأصل. والجادع: قاطع الأنف خاصة. والغمران، وذو نجب: مواضع في بلاد بني أسد. والغلّان: الوديان الغامضة في الأرض. والدوافع: الأراضي السهلة التي تدفع فيها الأودية. والخو والتين والربائع: مواضع في بلاد بني أسد. ومكاكي: جمع مكاء، وهو طائر أبيض كثير الصفير.

(٤٩) شرح ديوان الحماسة: ٢/٩٩١ - ٩٩٤، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط القاهرة ١٩٥١.

وعواقب الأطهار: أي مراجعة البعولة إلى مضاجعة النساء بعقب أطهارهن. والأكوار: جمع الكور وهو الرحل بأداته. والمجنّبات: هي الخيل التي كانوا يجنبونها فلا يركبونها إلا في الإغارة. والعذوف: أدنى الأكل. والمساعر: هو الذي يُسعر الحرب ويوقدها.

(٥٠) الأغاني: ١٠/٣٤.

(٥١) قصائد جاهلية نادرة: ص ١٥٨، مختارات من (منتهى الطلب) لابن ميمون، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط بيروت ١٩٨٢

(٥٢) السيرة النبوية: ٢/٢٩. والقليب: البئر. والشِّرب: جماعة القوم الذين يشربون. والشيزى: الجفان تصنع من خشب. والسنام: لحم ظهر البعير. والحومات: جمع الحومة، وهي القطعة من الإبل. والمسام: المرسل في المرعى من دون راع. والثنية: الفرجة بين جبلين. ونَعام: موضع والسّقب: ولد الناقة.

(٥٣) المغازي: ١/١٢٢، للواقدي، تحقيق بارسدن جونس، ط جامعة أكسفورد ١٩٦٦.

(٥٤) ديوان الخرنق بنت بدر: ص **٢٩ - ٣٢**، تحقيق حسين نصار، ط القاهرة **١٩٦٩**. والتأبيه: الصوت.

(٥٥) الأصمعيات: ص ١٨٧. وفادوا: ماتوا. وحُذاق: حي من إياد. واستقل: رحل: والرِّهام: جمع الرِّهمة: وهي المطر الضعيف. والهام: جمع الهامة، وهي طائر صغير، تزعم العرب أنه يخرج من الميت.